المملكة العربية السعودية
وزارة الحج والأوقاف

التفسير البسيط للقرآن الكريم

بقلم
د. حسن محمد باجودة

الطبعة الأولى

الجزء العاشر

منشورات الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

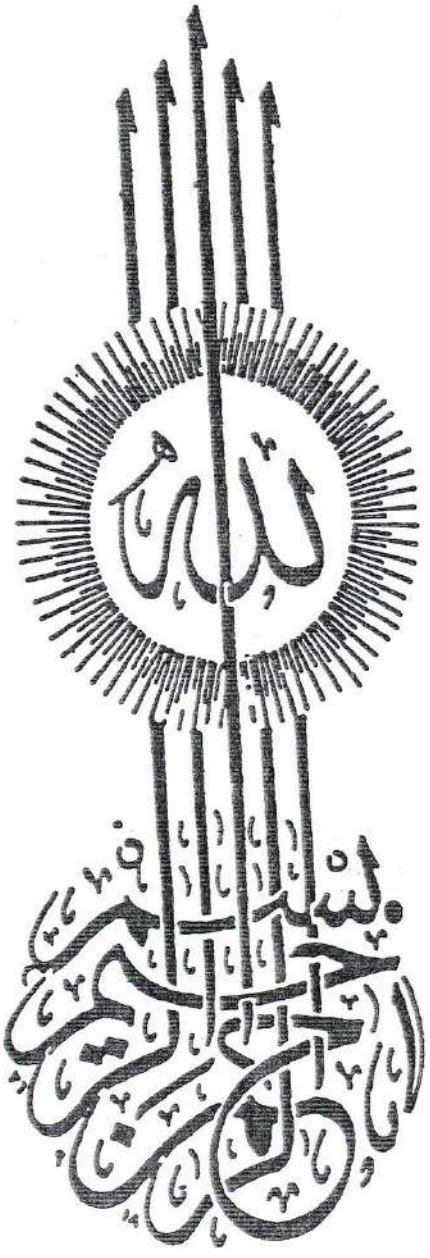
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنـا محمـد وعلى آلـه وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا تفسير مبسط للجزء العاشر من القرآن الكريم ، يكمـل به تفسير سورة الأنفـال ويغطـي جزءاً كبيراً من سورة التوبـة . وقـد قمت بعملـه على غرار تفسير الأجـــزاء التسعـــة السابقة ، التي طبعتها وزارة الحج والأوقاف مشكورة ، تلبية لرغبة كريمة للجنـة العليـا المنظمـة للاحتفال السنوي العالمي لتلاوة القـرآن الكـريم وتجويـده وتـفسيره ، برئـاسة معـالي وزيـر الحج والأوقاف ، الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع . إن هذا الجزء العاشر هو ميـدان التـفسير للمتسابقين في الحقل الأول ، الذي يشمل حفظ القرآن الكريم كامـلاً مع التـفسير ، من بين الحقـول الخمسة للمسابقـة ، في الاحتفـال السنـوي الثـالث عشر ، المنعقـد في شهـر رجب ١٤١١هـ . وكأن هذا التفسير تتويج للأعمال التي تمت في مجال التفسير ، في أثناء الاحتفـال الثالث عشر ، علماً بأن ميدان المتسابـقين في الاحتفـال الرابـع عشر عام ١٤١٢هـ إن شاء الله تعالى ، هو الجزء الحادي عشر من القرآن الكريم .

وأنتهز هذه الفرصة المباركة كي أوجه خالص شكري وتقديري لوزارة الحج والأوقـاف ، وعلى رأسها معالي الوزير ، على الثقـة التـي منحتنـي إياهـا ، بأن أقـوم بعمـل هذا التـفسير ، الذي حرصت فيه ، كما حرصت في سابقيه على أمور أهمها ثلاثة :

١ ــ أن أبين مظاهر الترابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ــ أن أشير إلى الدروس التي يمكن أن تستفاد .

٣ ــ أن أنسب الأقوال كلها إلى مصادرها .

وفي الختـام أسأل الله تعـالى أن يجعـل هذا العمـل خالصاً لوجهـه الكـريم ، إنـه سميـع مجيب .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ سبحان ربك رب العزةِ عما يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة
يوم الجمعة ٨ /٨/١٤١١هـ
الموافق ٢٢/٢/١٩٩١م

كتبه الفقير إلى عفو ربه
د. حسن محمد باجودة
رئيس لجنة تحكيم مسابقة القرآن الكريم الدولية بالمملكة العربية السعودية

أولاً
تمام سورة الأنفال

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن
كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ
أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ
أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ
وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ
وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ
وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۖ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ
وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ
بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ
بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

بين يدي التفسير

« توزيع الغنائم وتأييد الله تعالى المؤمنين وخِذْلان الكافرين »
الآيات (٤١ ــ ٤٤)

يبيِّن السياق أن ما غنمه المسلمون في ميدان القتال من المشركين توزَّع أربعة أخماسه على المجاهدين ويكون الخمس الأخير حقًّا لله تعالى وللرسول ﷺ ولذي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب واليتامى والمساكين وابن السبيل . إن هذا هو حكم الله تعالى في الغنائم إن كنتم آمنتم بالله تعالى ربًّا ، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا وحبيبنا محمد ﷺ من قرآن كريم وملائكة يوم بدر الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل والتقى فيه جمع المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ وجمع الكافرين بقيادة عتبة بن ربيعة وأبي جهل . إن الله سبحانه وتعالى قدير على كل شيء . لقد كان المؤمنون يوم بدر بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة ، والكافرون بشفير الوادي الأقصى إلى مكة ، وأبو سفيان والعير أسفل الفريقين بمحاذاة ساحل البحر باتجاه مكة . إنكم أيها المؤمنون لو تواعدتم مع المشركين على القتال في بدر وتبيَّنتم قلَّتكم وكثرتهم وقلة عتادكم وكثرة عتادهم لاختلفتم في الميعاد ولكن الله تعالى جمعكم على غير ميعاد ليقضي الله أمراً كان مفعولاً بهلاك الكافرين حسًّا ومعنى وحياة المؤمنين حسًّا ومعنى . أما قلَّتكم فقد لطف بكم ربكم في حقها ففي النوم يرى المصطفى ﷺ المشركين قليلاً ويبشّر عليه الصلاة والسلام أصحابه وتقوى قلوبهم ويصمّمون على القتال ، ولولا ذلك لجبن المسلمون واختلفوا . وعند التقاء الجمعين يرى المؤمنون المشركين قليلاً كي ترتفع روحهم المعنوية وتقوى على القتال ، ويرى المشركون المؤمنين قليلاً كي يستهينوا بهم . وقد قاتل الملائكة مع المؤمنين . وكان عددهم ألفاً ثم ارتفع إلى ثلاثة آلاف فخمسة آلاف .

« بعض شروط النصر ومنها التوكل على الله تعالى »
الآيات (٤٥ ــ ٤٩)

يأمر السياق الذين آمنوا إذا لقوا فئةً من الكفار أن يثبتوا وأن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً ، وأن يطيعوا الله تعالى ورسوله ﷺ طاعة مطلقة ، وينهاهم على التنازع فيما بينهم لأن مصير ذلك الجبن وذهاب الريح ، وعليهم دائماً وأبداً أن يصبروا وأن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين . وبعد نهيهم عن الصفات الذاتية السيئة ينهاهم السياق عن التحلّي بالصفات المكتسبة السيئة أو الخارجية ، فينهاهم عن أن يكونوا مثل الذين خرجوا من مكة

المكرمة بطراً للنعمة وكفراً بها وتعالياً على عباد الله تعالى واحتقاراً لهم وبقصد الرياء والفخر والصد عن سبيل الله تعالى . إن الله تعالى محيط بما يعملون وسيجازيهم ، وإن الله سبحانه وتعالى سميع عليم إذ زيَّن الشيطان لهؤلاء الكافرين أعمالهم السيئة وكذب عليهم قائلاً إنهم لا غالب لهم يوم بدر من الناس وإنه جارٌ لهم . فلماء تراءت الفئتان وقَبْلَ التحام الجيشين فرَّ اللعين مرتدًّا القهقرى وجاء على لسانه القول للمشركين الذين غرَّر بهم اللعين : ﴿ إني بريء منكم ﴾ والقول وقد رأى الملائكة وطلائع النصر : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ وكذب اللعين في القول على لسانه : ﴿ إني أخاف الله ﴾ وإن الله سبحانه وتعالى شديد العقاب أليم الأخذ ، وإن الله سبحانه وتعالى سميع عليم إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض الشكوك والريب : خدع هؤلاء المؤمنين إيمانهم عن حقيقة قدرهم ونسي أولئك الكافرون أن المؤمنين بعد أن يأخذوا بالأسباب يتوكلون على الله سبحانه وتعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه البارىء الوهاب .

« سنة الله لا تتخلف في عذاب الكافرين وفي عدم زوال النعمة إلا بعد كفرانها »
الآيات (٥٠ ــ ٥٤)

يبين السياق أن عذاب الكافرين الذين أهانهم الله تعالى في الحياة الدنيا يبدأ بشأن الآخرة منذ أن تتوفى ملائكة العذاب الذين كفروا إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب جهنم . إنك لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً ، وإن ذلك بسبب ما قدمت أيديهم فلا يظلم ربك أحداً . وإن شأن كفار مكة كشأن فرعون وآله والذين من قبلهم . إنهم كفروا بآيات الله تعالى فأخذهم الله تعالى القوي الشديد العقاب بذنوبهم ، وإن سنة الله تعالى قد جرت بما شاء الله تعالى لها ، وإن الله تعالى قد شاء ألا يغيِّر نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . إنه جل وعلا سميع لكل قول ، عليم بكل نيَّةٍ وفعل . إن شأن كفار مكة كشأن فرعون وآله والذين من قبلهم ، كذَّبوا بآيات الله تعالى بعد أن كفروا فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم ، وأغرق آل فرعون وأخذ جلَّ وعلا كل ظالم أخذ عزيزٍ مقتدر . وإن كفار مكة ، مثلاً ، كذبوا محمداً ﷺ فسلبهم الله تعالى هذه النعمة المسداة والرحمة المهداة وخصَّ بها الأنصار رضوان الله تعالى عليهم .

« الكافرون شرّ الدواب ووجوب وفاء المؤمنين بالعهد وإعداد ما استطاعوا من قوة »
الآيات (٥٥ ــ ٦٠)

أشار السياق من ذي قبل إلى فئات من الكافرين منهم كفار مكة ، ويبين السياق هنا أن الذين كفروا ولم يؤمنوا هم شر ما يدب على الأرض عند الله تعالى ، لأنهم ينقضون عهدهم المؤكد كل مرة ، ويكفرون بالله تعالى ولا يتقونه جل وعلا دائماً وأبداً . ويؤمر عليه الصلاة والسلام كما يؤمر كل مؤمن وراء ذلك ، بأن يكون استعداده لقتال الكفار دائماً فإذا ثقفهم في الحرب وتمكن من مقاتلهم بسبب حسن إعداد القوة وحسن استعمالها عليه أن ينكِّل بهم كي يتعظ بهم الكافرون الآخرون المتربصون المستعدون للغدر ونقض العهود . إن هذه المعاني البعيدة تفهم من القول : ﴿ تثقفنَّهم ﴾ الذي يفيد الحذق في التعامل مع الأشياء . فإن خاف المصطفى ﷺ من قوم خيانة ونقض عهد فإن عليه أن يطرح إليهم عهدهم ويرده إليهم كي يستوي هو وهم في العلم بعدم بقاء العهد وبأن كلًّا من الفريقين محارب للآخر فيستعد له . وفي النهي عن الخيانة ونقض العهد يجيء القول : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ وإذا كانت جملة « تثقفنَّ » تعني حسن إعداد القوة وحسن استعمالها ضمناً ، وكان رد عهد الكافرين عليهم يعني حسن إعداد القوة أيضاً فإن هذه المعاني يأمر بها السياق ويبين بين يدي الأمر بها أن على الكافرين الذين نجوا في بدر ــ مثلاً ــ أن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد فحذار من الظن بأن إمهال الله تعالى لهم إهمال ، وأن يعلموا أن المؤمنين مأمورون بالإعداد لهم ما استطاعوا من قوة ومن كل أنواع السلاح كي يرهبوا أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ وأعداء المؤمنين ، وكي يرهبوا آخرين من المنافقين لا يعلمهم المؤمنون ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم . ويحث السياق المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى . ومن البيِّن أن القول : ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ له الموطئ في القول المماثل له من قبل : ﴿ فشرِّد بهم من خلفهم لعلَّهم يذَّكَّرون ﴾ .

« إن مالوا إلى المسالمة فمل إليها ، والله تعالى حسبك ومن اتبعك من المؤمنين وحرِّضهم على القتال »
الآيات (٦١ ــ ٦٦)

يأمر السياق المصطفى ﷺ وكل قائد مسلم بأن يميل إلى المسالمة إن مال الأعداء إليها وأن يتوكل على الله تعالى في كل الأحوال . إن الأعداء إن كانوا صادقين في الجنوح إلى السلم ففي الجنوح إليه امتثال لأوامر الله تعالى وتوكل عليه جل وعلا وحده لا شريك له . وإن كانوا كاذبين وأرادوا الخداع فإن الله سبحانه وتعالى هو كافيه وحسبه وإنه جل وعلا هو الذي أيده ﷺ بنصره في بدر وقوّاه بالمؤمنين مهاجرين وأنصاراً ، وألّف بين قلوبهم لأن كل ما في الأرض لو أُنْفِقَ من أجل هذه الغاية ولم يرد الله تعالى ذلك فإن شيئاً من تلك الغاية لن يتحقق . إن الله سبحانه وتعالى العزيز الحكيم هو الذي ألّف بينهم ، وإن رب العزة ينادي المصطفى ﷺ بوصفه بالنبوة إحدى أهم صفتيه وهما النبوة والرسالة ويخبره بأن الله سبحانه وتعالى حسبه وكافيه ، وكذلك المؤمنون . كما يناديه جل وعلا ويأمره بأن يحرِّض المؤمنين على القتال ويبشِّره بنصر المؤمنين الصابرين ، وبنصره جل وعلا المؤمن الواحد في فجر الإسلام على الكفرة العشرة ، وبعد ذلك حينما كثر المسلمون بنصر المؤمن الواحد على الكافرين الاثنين . ومع أن الآيتين الكريمتين تشيران إلى عمليات حسابية ، فإن هذه العمليات الحسابية من لطف الوقع لفظاً ومعنى على الأذن والنفس للدرجة التي نتذكر معها الصفة الفريدة الخاصة بالقرآن الكريم وهي قدرته العجيبة على إشباع النفس وإرضاء العقل . ومما تبين بشأن الأرقام التدرج من العشرات إلى المئات إلى الألوف ، ومجيء كل من المائة والمائتين والألف مرتين اثنتين ، ومجيء الرقم « عشرون » ابتداء والرقم « ألفين » انتهاء مرة واحدة . هذا إلى التوزيع اللطيف للصبر المضمر في القول : ﴿ يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال ﴾ والصبر الظاهر وراء ذلك في الآيتين الكريمتين .

« قتل أسرى بدر أَوْلى ، وإحلال الغنائم والفداء ، وثواب الأوفياء ، وعذاب الخائنين »
الآيات (٦٧ ــ ٧١)

الآية الكريمة الأولى في عتاب المصطفى ﷺ والمؤمنين الذين لم يقتلوا أسرى بدر فقد كانت المرحلة المبكّرة من تاريخ الإسلام تقتضي هذا القتل كيلا تقوم للكافرين قائمة وبذلك تجاوز المؤمنون الأفضل وهو قتل الأسرى إلى المفضول وهو أخذ الفداء . والمعروف أن الآية الكريمة الرابعة من سورة محمد عليه الصلاة والسلام قد نصت على حالين من حالات أربع يعامَل بها الأسير وهما المنّ والفداء أما الحالان الأخريان فهما القتل والاسترقاق ، وقد طبَّق عليه الصلاة والسلام كلًّا من الحالات الأربع . إن الآية الكريمة الأولى تقول : ما ينبغي أن يكون لنبيٍّ أسرى في فجر الدعوة حتى يثخن في الأرض وحتى يسيل دم الأسرى من الكافرين فيعود دمهم ثخيناً جامداً دليلاً على هوانهم على الله تعالى وحتى تكون حركة الكافرين ، بسبب تربُّص المؤمنين بهم ، مقيَّدة بطيئة لها من صفة دمهم الذي صار ثخيناً أوفر الحظ والنصيب . ومن البين أن الفداء الذي كان في غزوة بدر مفضولاً أصبح بعد ذلك هو الفاضل كما تبين من آية سورة محمد عليه الصلاة والسلام . وإن الناظر إلى كل المواطن في القرآن الكريم التي فيها عتاب للمصطفى ﷺ يتبين أن عتاب الله تعالى عبده وحبيبه ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام تجاوز الفاضل عند الله تعالى إلى المفضول . والمعروف أن السياق أباح للنبي ﷺ وللمؤمنين أخذ الغنيمة وأخذ الفداء ضمناً . وقد عرفنا أن هذا المفضول اليوم أصبح هو الفاضل غداً . ونحن إنما نحب الوقوف مليًّا عند مسألة العتاب في القرآن الكريم لأنّا نحب أن يستعمل في حقه ﷺ مثل هذا التعبير المؤدَّب المهذَّب من تجاوز الفاضل إلى المفضول وليس أي تعبير آخر قد نصادفه فيما نقرأ من أسفار ليس له مثل هذا الحظ والنصيب من التوقير والتبجيل له عليه الصلاة والسلام .

لقد عاتب السياق المصطفى ﷺ والمؤمنين على أخذ الفداء ، وأذن لهم على الفور في أخذ الفداء وفي أخذ الغنائم التي لم يكن مسموحاً بأكلها في حق المرسلين السابقين والنبيين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، وأمرهم بتقوى الله تعالى .

وقد تحدث السياق عن الأسرى صادقي الإيمان ومدَّعي الإيمان . أما صادقو الإيمان فيعدهم بأن الله سبحانه وتعالى سيؤتيهم خيراً مما أُخذ منهم وبالمغفرة . وأما مدَّعو الإيمان الخائنون فيوعدهم بالهزيمة على غرار هزيمة بدر وبالنار وبئس القرار .

« المؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والكافرون بعضهم أولياء بعض ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث »
الآيات (٧٢ ــ ٧٥)

بما أن العاقبة للمتقين وبما أن الصراع بين الإيمان والكفر ، الحق والباطل أزلي فقد بيَّن السياق أن المؤمنين أمة قائمة برأسها وكذلك الكفار . إن الآية الكريمة الأولى تقرِّر أن الذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا إلى المدينة المنورة وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى والذين آووا المهاجرين وهم الأنصار والذين نصروا الله ورسوله وهم المهاجرون والأنصار أولئك أولياء بعض ونصراء بعض . كما تقرِّر أن الذين آمنوا بالله ورسوله ولكنهم لم يهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام ليس للمؤمنين من نصرتهم على أعداء الله تعالى من شيء دليلاً على تأخر مرتبة غير المهاجرين مع القدرة ، حتى يهاجروا ، ودليلاً على منزلة المهاجرين الرفيعة . وإنْ طلب أولئك المؤمنون النصر من المؤمنين المهاجرين والأنصار فعليهم النصر إلا ضد قوم بين المؤمنين وبينهم عهد مؤكد فعلى المؤمنين الوفاء امتثالاً لأمر الله تعالى البصير بما يعمل الخلائق .

والآية الكريمة الأخرى تقرر أن الكافرين في المقابل أولياء بعض ونصراء بعض ، وأن على المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة ضد الكفر فإنه ملة واحدة . إن المؤمنين إن لم يفعلوا ذلك تكن فتنة كبرى للمؤمنين عن دينهم في طول الأرض وعرضها وفساد كبير .

وتبين الآية الكريمة الثالثة صفات المؤمنين وثوابهم . إنهم الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، وهاجروا في سبيل الله تعالى وآووا المهاجرين ونصروا الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان . إن لأولئك مغفرةً من الله تعالى لذنوبهم وستراً لعيوبهم ورزقاً كريماً في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والآية الكريمة الأخيرة في القِسْم وفي السورة ترفع المؤمنين بعد ذلك والمهاجرين قبل الفتح إلى منزلة السابقين فإنهم جزء لا يتجزأ منهم . ولما كان التوارث في صدر الإسلام يتمّ بسبب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ولما كان رب العزة قد شاء لهذا النوع من التوارث أن يكون منسوخاً شأنه في ذلك شأن كل أنواع التوارث الأخرى التي نسخت بآيات الميراث في سورة النساء فإن هذه الآية الكريمة التي لها دور في نسخ التوارث بالمؤاخاة تقرر أن أُولي الأرحام بعضهم أَوْلى ببعض في مجال الميراث في كتاب الله تعالى والسابق من القضاء واللوح المحفوظ ، وتبيّن أن الله تعالى بكل شيء عليم ومن ذلك الأحق بالميراث .

التفسير

« توزيع الغنائم وتأييد الله تعالى المؤمنين وخِذلان الكافرين »

الآيات (٤١ ــ ٤٤)

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾

واعلموا أنما غنتمتم : الغنيمة ما أُخِذ عَنْوَةً والفَيْء ما كان عن صُلْح(١) فالغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والرِّكاب . والفَيْء ما أُخِذَ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها أو يُتَوَفَّوْن عنها ولا وارث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك . هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخَلَف(٢) .

فَأَن لله خمسه وللرسول : كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدها(٣) ويُفْهم من ظاهر الآية الكريمة أن الخمس الباقي يقسم على ستة أسهم لله تعالى وللرسول ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وقد اختلف المفسرون ههنا على عدة آراء :

(١) فقال بعضهم لله نصيب في الخمس يُجْعَل في الكعبة . قال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية الرّياحي قال : كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله ، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم . فيكون سهم للرسول ، وسهم لذوي القُرْبى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل(٤) .

(٢) وقال آخرون : ذِكْرُ الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه السلام . قال الضَّحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خَمَسَ الغنيمة فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ : واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول . فأن لله خمسه ، مفتاح كلام ، لله ما في السماوات وما في الأرض . فجعل

(١) تفسير الطبري ٢/١٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣١٠/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣١٠/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣١٠/٢ وتفسير الطبري ٤/١٠ .

سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً . وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي والحسن بن محمد ابن الحنفية والحسن البصري والشَّعبي وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن أبي بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد إنَّ سهم الله ورسوله واحد(١) .

(٣) عن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس ، فأربعة منها لمن قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة . فربعٌ لله والرسول ولذي القربى ، يعني قرابة النبي ﷺ . فما كان لله والرسول فهو لقرابة النبي ﷺ ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً . والربع الثاني لليتامى . والربع الثالث للمساكين . والربع الرابع لابن السبيل(٢) .

(٤) عن عبد الله بن بريدة قال : الذي لله فلنبيه . والذي للرسول لأزواجه(٣) .

(٥) قال عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبي ﷺ ، وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمّته كيف شاء . ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدَّثنا إسحاق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن أبي سلام الأعرج عن المقدام بن معديكرب الكندي أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة ، يا عبادة : كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس . فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلَّى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم فلما سلَّم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرةً بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدُّوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلُّوا فإن الغلول عارٌ ونارٌ على أصحابه في الدنيا والآخرة . وجاهدوا الناس في الله ، القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ، ينجِّي الله به من الهمِّ والغمِّ . هذا حديثٌ حسنٌ عظيم ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه ، ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنَّسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغُلول(٤) .

(١) تفسير ابن كثير ٣١١/٢ وتفسير الطبري ٣/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ٤/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١١/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣١١/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣١١/٢ .

(٦) وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفيء . وقال شيخنا العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السَّلف . وهو أصحّ الأقوال . فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلفت أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده . فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع . وقال آخرون : يُصْرَف في مصالح المسلمين . وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف ، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . اختاره ابن جرير . وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل . قال ابن جرير : وذلك قول جماعة من أهل العراق . وقيل : إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير[١] .

ولذي القربى : قال الشافعي وغيره : ذوو القربى بنو هاشم وبنو المطلب خاصة . عن سعيد بن المسيِّب عن جبير بن مطعم قال : لما قسم رسول الله ﷺ سَهْمَ ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب ، مشيت أنا وعثمان بن عفان رضي الله عنه فقلنا يا رسول الله : هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم . أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة . فقال : إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام . إنما بنو هاشم وبنو المطّلب شيء واحد . ثم شبَّك رسول الله ﷺ يديه إحداهما بالأخرى[٢] رواه مسلم . وهذا قول جمهور العلماء إنهم بنو هاشم وبنو المطلب[٣] عن مجاهد قال : علم الله أن في بني هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصَّدقة[٤] .

واليتامى : أي أيتام المسليمن . واختلف العلماء ، هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين[٥] .

والمساكين : هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسدّ خَلَّتهم ومسكنتهم[٦] .

وابن السبيل : هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك[٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣١٢ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣١٢ وتفسير الطبري ١٠/٥
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣١٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣١٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣١٣ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣١٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣١٣ .

إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا : محمد ﷺ من الملائكة والآيات[1] .

يوم الفرقان : عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر فَرَق الله فيه بين الحق والباطل . رواه الحاكم[2] عن عروة بن الزبير في قوله : يوم الفرقان ، يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ[3] . قال الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من شهر رمضان[4] وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة[5] .

تخاطب الآية الكريمة المؤمنين المنتصرين في بدر والذين حصلوا على الغنائم ، كما تخاطب المؤمنين في كل زمان ومكان وتأمرهم أن يعلموا بأن أي شيء غنموه من أعداء الله تعالى ، كبر أو صغر ، عظم أو حقر ، فإن لله سبحانه وتعالى خمسه وللرسول ﷺ ولذي القربى من بني هاشم وبني المطّلب مقابل الصدقة التي لا تجوز عليهم ، واليتامى والمساكين وابن السبيل . أما الأربعة الأخماس الأخرى فإنها توزع على المجاهدين في سبيل الله تعالى . إن الذين يمتثلون لهذه الأوامر هم أولئك الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا ، وآمنوا بما أنزل الله تعالى على عبده محمد ﷺ يوم بدر ، يوم الفرقان الذي فَرَق الله تعالى فيه بين الحق والباطل بنصر الإسلام وأهله ودحر الكفر وأهله . أمّا ما أنزل الله تعالى على عبده ﷺ في ذلك اليوم فالملائكة التي قاتلت يوم بدر في صفوف المؤمنين ، وآي الذكر الحكيم التي أنزلها الله تعالى برداً وسلاماً على قلب المصطفى ﷺ . وانظر إلى لفظة « عبد » التي تستعمل في حق المصطفى ﷺ في مناسبة من أجلّ المناسبات ويوم من أعظم أيّام الإسلام . لقد فرق الله تعالى بين الحق والباطل يوم التقى الجمعان في بدر ، جَمْع المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ ، وجَمْع المشركين بقيادة عتبة بن ربيعة وأبي جهل . إن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، هكذا في صيغة المبالغة ، ومن ذلك أن ينصر جلّ وعلا المؤمنين في بدر وهم قلّة وأذلّة ، فقد كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وكانوا قليلي السلاح ، على المشركين وهم كثيرو العدد والعدّة . لقد كانوا بين التسعمائة والألف في كامل السلاح والعتاد .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ وتفسير الطبري ٧/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ٨/١٠ .
(٥) تفسير الطبري ٧/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

إذ أنتم : بدل من يوم[1] .

بالعُدْوة الدُّنيا : بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة[2] وجانبه[3] .

وهم بالعدوة القصوى : وعدوّكم من المشركين نزول بشفير الوادي الأقصى إلى مكة[4] البعيد من المدينة إلى مكة[5] .

والركب أسفل منكم : والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر[6] .

ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد : ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين عن ميعاد منكم ومنهم لاختلفتم في الميعاد لكثرة عدد عدوكم وقلة عددكم ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[7] .

ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيى من حيَّ عن بيِّنة : قال محمد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك . وهذا تفسير جيد[8] .

اعلموا أيها المؤمنون أن هذا هو حكم الله تعالى في الغنائم إن كنتم آمنتم بالله تعالى وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم بدر يوم الفرقان إذ أنتم أيها المؤمنون بالعدوة الدنيا من الوادي وبالجانب القريب من المدينة المنورة ، والكافرون بالعدوة القصوى من الوادي وبالجانب البعيد من المدينة المنورة ، والرَّكب بقيادة أبي سفيان أسفل منكم بمحاذاة ساحل البحر الأحمر .

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطبري ٨/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٣) مفردات الراغب والأصفهاني « عدا » ٣٢٧ .
(٤) تفسير الطبري ٨/١٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٦) تفسير الطبري ٨/١٠ .
(٧) تفسير الطبري ٩/١٠ .
(٨) تفسير ابن كثير ٣١٥/٢ .

إنكم أيها المؤمنون لو تواعدتم مع المشركين على القتال لاختلفتم في الميعاد ولتحاشيتم الاصطدام بهم بسبب قلّتكم وكثرتهم ولكن قضى الله تعالى بقتالكم لهم ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً بانتصار المسلمين رغم قلتهم وذلتهم وقلة عتادهم ، وبانهزام المشركين رغم كثرتهم وكثرة عتادهم . إن انتصار الفئة المؤمنة القليلة العدد على الفئة الكافرة الكثيرة العدد آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته جل وعلا كي يأخذ الجميع العبرة بأن الله سبحانه وتعالى غالب على أمره وكي يهلك بعد ذلك من هلك مصرًّا على كفره عن بيِّنة وحجة لله تعالى بالغة وإصرارٍ على الكفر والشقاء ، وكي يحيى من حيَّ بالإيمان عن بيِّنة فقد جاء الحق وزهق الباطل .

إن الله سبحانه وتعالى هو السميع لكل قول ، العليم بكل نية وفعل . وسيجازي جلَّ وعلا كلًّا على نيَّته وقوله وفعله .

ونودّ أن يكون تصوّرنا كاملاً لموطن كلٍّ من المؤمنين والمشركين في ميدان القتال وموطن أبي سفيان الذي عدل بالقافلة عن طريقها وغادر ماء بدْر متّجهاً إلى ساحل البحر الأحمر فور علمه بقرب مجيء الجيش الإسلامي . كما نود أن نشير إلى نجاة العير بقيادة أبي سفيان وعلم أبي جهل وعتبة بن ربيعة وسائر المشركين بنجاة العير وإصرار أبي جهل والمشركين على ورود ماء بدر ونحر الجُزُر وشرب الخمر والإصغاء للقينات ضاربات الدفوف كي تسمع بهم العرب وتهابهم . وهكذا يتبين أن الشّقّة كانت بعيدة بين القافلة بقيادة أبي سفيان وبين جيش الإيمان وجيش الكفر في بدر وقد قال تعالى عن القافلة أو العير : ﴿ والرَّكب أسفل منكم ﴾ والمعروف أن ساحل البحر الأحمر منخفض بالقياس لبدر ، والمعروف كذلك أن أبا سفيان في اتجاهه إلى مكة إنما يسير في أرض منحدرة . وكلٌّ من الساحل المنخفض الذي يسير فيه أبو سفيان والأرض المنحدرة التي يسير فيها قوة لمعنى قوله عز من قائل : ﴿ والرَّكب أسفل منكم ﴾ .

كما نود أن نشير إلى الماء الذي أنزله الله تعالى على المؤمنين في بدر وعلى المشركين والذي كان خيراً للمؤمنين شراً للكافرين ، ذلك الماء الذي أشارت إليه الآية الكريمة الحادية عشرة من السورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ إذ يُغَشِّيكم النّعاس أَمَنَةً منه وينزّل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذْهِبَ عنكم رجز الشيطان وليَرْبط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ لقد كان المؤمنون في العدوة الدنيا بأسفل الوادي حيث الرملة الهشّة . وحينما نزل المطر تماسكت الرملة وثبتت أقدام المسلمين . وكان الكافرون في العدوة القصوى بأعلى الوادي حيث الأرض المنحدرة . وحينما نزل المطر أصبحت أرضاً زلقة لا يثبت عليها قدم ولا حافر بسبب الانحدار

والمطر . ولله الحمد والمنة[1] .

وإن هذه الملاحظات التي دونت عن موقع الجيشين والعير مأخوذة من المشاهدة الفعلية والواقع .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

لفشلتم : لجبنتم عنهم[2] والفشل ضعف مع جبن[3] وخوف[4] .

إن الله سبحانه وتعالى لسميع عليم إذ يريك الله تعالى في منامك أيها النبي الكريم والرسول العظيم المشركين قليلاً كي تقوى قلوب المؤمنين على قتال المشركين بعد أن أخبرتهم برؤياك وبقلّة عدد المشركين . ولو أراك الله سبحانه وتعالى في منامك المشركين كثيراً على حقيقتهم ، وكانوا بين التسعمائة والألف ، أو أكثر من حقيقتهم ، وعلم المؤمنون بذلك ، لفشلتم أيها المؤمنون ولجبنتم عن القتل وضعفتم عن النزال بسبب الخوف الذي يتمكن منكم ، ولتنازعتم واختلفتم في أمر القتال ، ولكن الله سبحانه وتعالى سلّمكم من الفشل والتنازع ، الجبن والاختلاف ، إنه جل وعلا عليم بذات الصدور ، وبحقائق القلوب وطبائعها ، وبما يحملها على الكر والإقدام ، وبما يغريها بالفر والإحجام .

وإن الله سبحانه وتعالى لسميع عليم إذ يريكم المشركين أيها المؤمنون إذ التقيْتُمْ بهم في بدر في ميدان المعركة وجهاً لوجه قليلاً كي تقوى قلوبكم على قتالهم ، وإذ يقلّلكم الله تعالى

---

(١) انظر هنا السيرة النبوية لابن هشام ٦١٩/١ حلبي تصوير بيروت .

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٥/٢ والجلالين .

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني « فشل » ٣٨٠ .

(٤) انظر تفسير الطبري ١٠/١٠ .

أيها المؤمنون في أعين المشركين ، كي يستهينوا بكم أيها المؤمنون ، وكيلا يأخذوا للأمر عدَّته ، وكيلا يأخذوا قتالكم مأخذ الجد بسبب معرفتهم عددهم وعدتهم ، وبسبب تقليل الله تعالى عددكم في أعينهم عن حقيقته . كان ذلك ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً بانتصار المصطفى ﷺ وجيش الإيمان على جيش الكفر والطغيان في يوم حاسم من أيام الإسلام ، يكفي دليلاً على أهميته وخطورته أن رب العزة لقَّبه في محكم كتابه بيوم الفرقان ، الذي فرق الله تعالى به وفصل فيه بين الحق والباطل . إن لله سبحانه وتعالى تُرْجَعُ كل الأمور ، فما شاء جل وعلا كان مهماً تكن الأسباب الظاهرة غير قائلة بذلك ، ما دام الله سبحانه وتعالى قد أراد ، وما لم يشأ الله تعالى لم يكن مهما تكن الأسباب الظاهرة قائلة بذلك ، ما دام الله سبحانه وتعالى لم يرد .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قُلْت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ! حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال كنَّا ألفاً[1] .

والمعروف أن تقليل المؤمنين في أعين المشركين كان قبل المعركة . أما وقد التحم الجيشان واقتتل الفريقان وأيَّد الله تعالى المؤمنين بألف من الملائكة مردفين متتابعين فقد رأى المشركون المؤمنين مثليهم رأي العين . جاء في إمداد الله تعالى المؤمنين بألف من الملائكة متتابعين قوله تعالى[2] : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ وجاء في رؤية المشركين المؤمنين مثليهم رأي العين في ميدان المعركة قوله تعالى[3] : ﴿ قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا . فئةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأي العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ .

والمعروف أن الوعد بالإمداد بالملائكة ارتفع إلى ثلاثة آلاف فخمسة آلاف . قال تعالى[4] : ﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ فاتَّقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٥/٢ وتفسير الطبري ١٠/١٠ .
(٢) سورة الأنفال ٩ .
(٣) سورة آل عمران ١٣ .
(٤) سورة آل عمران ١٢٣ ــ ١٢٥ .

((بعض شروط النصر ومنها التوكل على الله تعالى))

الآيات (٤٥ ــ ٤٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

تنادي أولى الآيتين الكريمتين الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا ، وتقول لهم : إذا لقيتم أيها المؤمنون في ميدان القتال فئةً كافرةً وجماعةً مشركةً ، فاثبتوا في ميدان القتال وكونوا كالجبال الراسخة أمام أعداء الله تعالى وأعدائكم ، ولتكن قلوبكم موصولة بالله تعالى الذي يُفْرغ الصبر ويثبّت الأقدام ويهب النصر . وتكون تلك القلوب موصولة بالله تعالى عن طريق ذكره جل وعلا ذكراً كثيراً ، وعن طريق التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل . إن العبد حينما يجاهد في سبيل الله تعالى بكلّ ما أُوتي من قوّة ، وحينما يتوكل على الله تعالى ويستعين به جل وعلا وحده لا شريك له ، فإنه لعله بفضل الله تعالى وبرحمته يكون من المفلحين الفائزين في الدنيا والآخرة .

وإن الآية الكريمة الأخرى تأمر هذا العبد المجاهد الذاكر لله تعالى بأن عليه أن يطيع الله تعالى طاعة مطلقة ، وأن يطيع الرسول ﷺ طاعة مطلقة . وقد قال تعالى[1] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ وإن الآية الكريمة تنهي العبيد الذين يطيعون الله ورسوله عن التنازع والاختلاف ، وعن الفشل والجبن ، لأن في ذلك ذهاب الريح وضياع النصر ، أي الهزيمة لا سمح الله . وتتوج الآية الكريمة مجموعة الأوامر والنواهي بالأمر بالصبر وتقرر أن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين بالعون والتأييد ، والهداية والتسديد .

والحقيقة أنّا نودّ أن نقف قليلاً عند ذهاب الريح الذي يكون ثمرة التنازع والفشل . قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ والذي يلفت النظر أن لفظة ريح جاءت في صيغة المفرد ، والمعروف أن صيغة الجمع : « رياح » إنما تأتي في القرآن الكريم مع الرحمة لأن الغيث أو المطر وليد مجموعة من الرياح ، ولهذا تأتي صيغة الجمع مع الرحمة إلا إذا كانت

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

الرحمة تتطلب الريح المفردة وذلك على غرار قوله تعالى في سورة يونس[1] : ﴿ هو الذي يسيِّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنُّوا أنهم أحيط بهم دعَوُا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ إن الريح التي تسيِّر السّفن واحدة فهي ملتئمة متماسكة . وقد استعملت في الآية الكريمة مع الرحمة فوصفت بأنها طيبة ، ومع العذاب فوصفت بأنها عاصف .

وإن ريح السفن في حال الرحمة ، وقد عرفنا أنها طيبة ومتماسكة ، تستعار دليلاً على تأييد الله تعالى للمجاهدين في سبيله جل وعلا ونصره عز وجل لهم . إن على المجاهدين في سبيل الله تعالى أن يستفيدوا من ريح النصر التي تهب دائماً في صالحهم حينما يطيعون الله تعالى ويطيعون رسوله ﷺ . أما في حالة العصيان ــ لا سمح الله تعالى ــ فليعلموا أن هذه الريح الملتئمة المتماسكة القوية التي هبت في صالحهم وجرت من أجل نصرتهم سوف تذهب عنهم في نفس القوة والسرعة ، وقد قال عز من قائل[2] : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وهكذا يتبين أن الريح هنا بمعنى القوة والحِدّة وما كانوا فيه من الإقبال[3] .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

بطراً : البطر دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلّة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها[4] .

ورئاء النَّاس : ومراءاة الناس بزيّهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم[5] وبالمفاخرة والتكبر عليهم[6] .

(١) الآية ٢٢ .
(٢) سورة آل عمران ١٦٠ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣١٦/٢ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني « بطر » ٥٠ .
(٥) تفسير الطبري ١٣/١٠ .
(٦) تفسير ابن كثير ٣١٧/٢ .

بعد أن أمر السياق المجاهدين في سبيل الله تعالى بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله ﷺ وبالاعتصام بحبل الله تعالى وبالصبر ونهاهم عن التنازع ينهاهم في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها عن سوء النيّة وسوء العمل ، بمعنى أنه يأمرهم بصلاح النيّة ، أي إخلاص العمل لله تعالى وحده لا شريك له ، وبصلاح العمل ، أي بكون العمل صالحاً بمقياس الإسلام .

إن الآية الكريمة تنهى المسلمين عن أن يكونوا مثل مشركي مكّة الذين خرجوا من ديارهم إثر وصول رسول أبي سفيان إليهم حاثًّا لهم على الخروج والمبادرة إلى إنقاذ عيرهم وتجارتهم التي خرج محمد ﷺ والمسلمون لاعتراضها والاستيلاء عليها . لقد خرج كفار مكة أشراً وبطراً ، اختيالاً وفخراً ، مراءاةً للناس وسعياً وراء نباهة الذكر وحرصاً على حُسْن الأُحْدُوثة . ومن البين أن هذه الصفات دليل على فساد النية . أما فساد العمل فهو صدهم عن سبيل الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

والدليل على فساد نيَّة كفار مكة وفساد عملهم إصرارهم على هذا الفساد بنوعيه . إنهم خرجوا من مكة لحماية العير بعد أن وصلهم رسول أبي سفيان يطلب منهم ذلك . وحينما كانوا بالجُحْفة[1] وهي قريةٌ بمحاذاة رابغ حاليًّا وصلهم رسول آخر من أبي سفيان يخبرهم بنجاة العير ويأمرهم بالرجعة فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوقٌ كل عام ، فنقيم عليه ثلاثاً ، وننحر الجُزُر ، ونطعم الطعام ، ونُسْقَى الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا[2] ! وإن مواصلة أبي جهل السير إلى بدر وقتال المسلمين نوع من الصد عن سبيل الله تعالى .

إن الآية الكريمة في نهيها المسلمين عن أن يكونوا كالمشركين تأمر المسلمين بأن يخلصوا النية ويصلحوا العمل . وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن الله سبحانه وتعالى محيط بما يعمل المشركون وبما يعمل كل مخلوق ، فلا يخفى عليه جل وعلا شيء في الأرض ولا شيء في السماء .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٢ وتفسير ابن كثير ٢/٣١٧ .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم : وإن الله لسميع عليم في هذه الأحوال وحين زيَّن لهم الشيطان خروجهم إليكم أيها المؤمنون لحربكم وقتالكم وحسّن ذلك لهم وحثّهم عليكم(١) .

وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس : وقال لهم لا غالب لكم اليوم من بني آدم فاطمئنوا وأبشروا(٢) .

وإنّي جارٌ لكم : من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فتغيركم ، أجيركم وأمنعكم منهم ولا تخافوهم واجعلوا جِدّكم وبأسكم على محمد وأصحابه(٣) . عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر ، يعني من الحرب ، فكاد ذلك أن يثبّطهم ، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن جُعْشُم المُدْلِجيّ وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه فخرجوا سراعاً(٤) . عن السّدّي قال : أتى المشركين إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني الشاعر ثم المدلجي فجاء على فرس فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس فقالوا : ومن أنت . قال : أنا جارُكُمْ سراقة وهؤلاء كنانة قد أتوكم(٥) . عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج ، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم(٦) .

نكص على عقبيه : رجع القَهْقَرَى على قفاه هارباً(٧) ورجع مدبراً(٨) .

قرر السياق من ذي قبل أن الله سبحانه وتعالى سميع عليم إذ يُري جل وعلا المصطفى ﷺ المشركين قليلاً في منامه ﷺ ، وإذ يُري المؤمنين ساعة التقاء الجمعين في بدر المشركين قليلاً لتقوى قلوبهم على القتال ، وإذ يُري المشركين المؤمنين قليلاً ليستهينوا بالمؤمنين . وتقرر

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٥ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٥ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٥ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/١٤ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/١٤ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/١٤ .
(٧) تفسير الطبري ١٠/١٥ .
(٨) تفسير الطبري ١٠/١٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣١٧ .

الآية الكريمة هنا أن الله سبحانه وتعالى سميع عليم إذ زيَّن الشيطان الرجيم للمشركين أعمالهم وحسَّن لهم قتال المصطفى ﷺ في بدر ، وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس ولا منتصر وعليكم هذا النهار من المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ . وإنه ، أي اللعين ، جارٌ لهم من أن تأتيهم كنانة ، التي كان بينها وبين قريش حروب ، بشيء يكرهونه من حرب لهم أو نُصْرة للمؤمنين عليهم . وقد كذب اللعين في وعوده وأمانيه .

فلما تراءت الفئتان ، والتقى الجمعان ، وأمدّ الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالملائكة ، نكص اللعين على عقبيه ، ورجع القهقرى على قفاه هارباً ، وولّى مدبراً ، وقال إني بريء منكم أيها المشركون . إن اللعين خدعهم وغرّر بهم وهو الكذوب الغرور ، وقال إني أرى من الملائكة التي أمد الله تعالى بها المؤمنين وأمرها بتثبيتهم والتي قاتلت معهم ، وقال إني أرى ما لا ترون أيها المشركون . وقال الكذوب إنه يخاف الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى شديد العقاب أليم الأخذ ، وقد أخذ جل وعلا في بدر المشركين بذلّ القتل والأسر والجراح والهزيمة . قال قتادة : وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة ، فعلم عدوّ الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال : إني أرى ما لا ترون إنِّي أخاف الله . وكذب عدوّ الله . والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة ، وتلك عادة عدوّ الله لمن أطاعه واستقاد له . حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شرّ مسلّم وتبرأ منهم عند ذلك .

قلت : يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى : كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . وقوله تعالى : وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وما أنتم بِمُصْرِخِيّ ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم[1] . وروي أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة ، والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر . قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع (يقود) الملائكة[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٨/٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٨/٢ .

عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما كفّ بصره يقول : لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأخبرتكم بالشّعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى . فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم أنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا ، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشر فإنهم ليسوا بشيء والله معكم فكرّوا عليهم . فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون وهو في صورة سراقة . وأقبل أبو جهل يحضّض أصحابه ويقول : لا يهولّنكم خِذلان سراقة إياكم فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه[1] !

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

من المعروف أن وجود الكفر في مكة المكرمة طبيعي ، لأن المسلمين كانوا مستضعفين في الأرض فأعلن المشركون كفرهم على رءوس الأشهاد ، وأن وجود النفاق في المدينة المنورة طبيعي أيضاً ، لأن المسلمين كانوا هنالك هم الغالبين فقد أسسوا بفضل الله تعالى دولتهم وكانت لهم الكلمة العليا . ولما كانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة فمن الطبيعي أن يكون المنافقون المذكورون في الآية الكريمة هم من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب . إن المنافقين الذين تمكن النفاق منهم وتغلغل إلى أعماقهم ، وإن الذين في قلوبهم مرض من النفاق والشك والحَيْرة والتذبذب من أهل المدينة وممن حولها ، قد سمع الله سبحانه وتعالى قولهم وعلم بنيتهم إذ قالوا إزاء قلة المؤمنين بالقياس إلى المشركين في العدد والعدّة غرَّ هؤلاء المؤمنين دينهم ، وخدعهم عن حقيقة أقدارهم إيمانهم ، وحجب عن أعينهم حقيقة قلّتهم وذلتهم فرط حماستهم لدينهم وشدة إخلاصهم لعقيدتهم . ونسي أولئك المنافقون والذين في قلوبه مرض أن المؤمنين متوكلون على بارئهم جل وعلا وحده لا شريك له ، وأنهم قاموا بما هم ملزمون به من أخذ بالأسباب . والأمر قبل ذلك وبعد ذلك ، لله تعالى وحده لا شريك له . إن المؤمنين قد ائتمروا بما أمرهم الله تعالى به ، ومن ذلك الأخذ بالأسباب وذلك منتهى طاقتهم ، ومن ذلك التوكل على الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه . إن الله سبحانه وتعالى هو السميع العليم إذ يريكهم في منامك قليلاً ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣١٨ .

قليلاً ، وإذ يقللكم في أعينهم ، وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض هذه الأقوال التي تدل على ضعف إيمانهم ، وتمكّن الشكوك منهم ، وتسلل النفاق إلى صدورهم ، وتسرب ضعف اليقين إلى قلوبهم .

إن المؤمنين القليلي العدد والعدّة حينما يقبلون على قتال أعداء الله تعالى إنما هم المتوكلون على الله تعالى العزيز الحكيم وليس كما يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض بأن المؤمنين مغرورون بدينهم مخدوعون عن حقيقة أقدارهم بإيمانهم . إن لسان حال الآية الكريمة يقول للمنافقين الجبناء ومن على شاكلتهم : إن النصر من عند الله تعالى وحده لا شريك له وليس بكثرة العدد والعدّة ، وإن يوم بدر يوم الفرقان لأكبر دليل وأعظم برهان .

« سنة الله لا تتخلّف في عذاب الكافرين وفي عدم زوال النعمة إلا بعد كفرانها »

الآيات (٥٠ ــ ٥٤)

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

ولو ترى يا محمد ، ولو تعاين[١] أيها الرسول الكريم والنبي العظيم إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ، وإذ تنزع بشدة الملائكة أرواح الكافرين إذ يضربون وجوههم وأدبارهم بمقامع من حديد[٢] ويقولون[٣] لهم ذوقوا عذاب الحريق وعذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم[٤] وجواب لو محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً[٥] وهذه الآية الكريمة الأولى تأخذ بسبب من قوله تعالى في سورة محمد[٦] عليه الصلاة والسلام : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ أي كيف حالهم إذ جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب[٧] . كما تأخذ الآية الكريمة بسبب من قوله تعالى في سورة الأنعام[٨] : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجْزَون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والملائكة باسطو أيديهم : أي بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم[٩] .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أن ضرب الوجوه والأدبار والبشارة بعذاب النار بسبب ما قدّمت أيديهم من آثام وارتكبوا من ذنوب ، وبخاصة الذنب الذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جل وعلا سواه . وإنما نسبت الآية الكريمة الذنوب إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال الطالحة والصالحة تمارس بها . كما تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى ليس بظلّام للعبيد

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٩/٢ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطبري ١٧/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٦/١٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣١٩/٢ .
(٦) الآية ٢٧ ، ٢٨ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٨٠/٤ .
(٨) الآية ٩٣ .
(٩) تفسير ابن كثير ١٥٧/٢ .

وقد قال تعالى[1] : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وجاء في الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول : يا عبادي إنّي حرَّمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه[2] .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

كدأب : الدأب هو الشأن والعادة[3] .

يعذب الله سبحانه وتعالى الذين كفروا في الأولى والآخرة بسبب ما قدّمت أيديهم ، وإن كفار مكة يُغْلبون في بدر ، ويوم القيامة يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد إن ماتوا كافرين . وإن الآية الكريمة تبين أن دأب كفار مكة وشأنهم وعادتهم كدأب فرعون وآله الكافرين المكذِّبين والذين من قبلهم من الضَّالين . وكما كان دأب كفار مكة كدأب آل فرعون والذين من قبلهم من الكافرين بآيات الله تعالى كانت سنة الله تعالى التي لا تتخلّف قد حقّت على هؤلاء الكافرين كما حقّت على الكافرين السابقين . لقد أخذ الله سبحانه وتعالى كلًّا بذنبه ، فمنهم من أرسل الله تعالى عليه حاصباً وريحاً عاصفةً فيها حصباء كقوم لوط ، ومنهم من أخذته الصَّيحة كثمود ، ومنهم من خسف الله تعالى به الأرض كقارون ، ومنهم من أغرقه تعالى كقوم نوح وفرعون وقومه ، ومنهم من هزمه الله تعالى شرّ هزيمة كقبيلة قريش في بدر . وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن الله سبحانه وتعالى قوي قادر على كل شيء ، شديد العقاب أليم الأخذ .

---

(١) سورة النساء ٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣١٩/٢ .
(٣) تفسير الطبري ١٧/١٠ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

أشار السياق من ذي قبل إلى عدل الله تعالى الكامل وقدرته جل وعلا المطلقة . إن الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وتبشّرهم بعذاب الحريق . وتبدأ الآية التالية باسم الإشارة الدالّ على البعد : « ذلك » والمراد ذلك الفعل والقول . وأشار السياق إلى سنة الله تعالى في الكافرين الذين يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر . وتبدأ هذه الآية الكريمة أيضاً باسم الإشارة : « ذلك » الذي يشير إلى فعل الله تعالى بكل كافر وفق فعله وكفره . وهذه الآية الكريمة تُفصِح بما يُفْهَم من الآيات الكريمات السابقات من سنةٍ لله تعالى لا تتبدل في حق الكافرين وفي حق المؤمنين كذلك . في حق شاكري النعم القائمين بحقها وفي حق كافرين النعم جاحديها . إن الآية الكريمة تقرر أن أخذ الله تعالى الكافرين به جل وعلا وبنعمه أخذ عزيز مقتدر بسبب أن الله سبحانه وتعالى قد اقتضت حكمته وجرت سنته بألّا يغير جل وعلا نعمةً أنعمها على قوم بأن يزيلها ويحولها نقمة حتى يغير أولئك الناس ما بأنفسهم من شكر لله تعالى إلى كفر بالله تعالى وكفران بنعمه جل وعلا ، وبسبب أن الله سبحانه وتعالى سميع ، هكذا في صيغة المبالغة ، لكل قول ، عليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، بكل فعل ونية ، فمجاز على كلٍّ إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهكذا يتبين شمول الآية الكريمة لكل إنسان مهما كان حاله . إن كان شاكراً لله تعالى فليكن على يقين بأن الله سبحانه وتعالى لن يسلبه نعمه ، وإن أكبر نعم الله تعالى على عبده نعمة الإيمان واليقين والرضا بما قدّر الله سبحانه وتعالى . وإن كان الإنسان ــ لا سمح الله ــ كافراً بالله تعالى وبنعمه جل وعلا ، فليكن على ذُكْرٍ بسنة الله تعالى التي لا تتخلف وليكن على علم بأن إمهال الله تعالى ليس إهمالاً . وإن المؤمن الذي يبدّل نعمة الله تعالى كفراً ويغيّر الله تعالى عليه نعمته التي أنعم بها عليه بسبب كفره ، عليه أن يعلم بنص الآية الكريمة ، بأن عودة نعمة الله تعالى إليه مشروطة بعودته هو إلى بارئه جل وعلا وتوبته توبةً نصوحاً .

وهكذا يتبين أن صاحب النعمة محل اختبار أيشكر كي تبقى النعمة وتزداد وقد قال

تعالى[1] : ﴿ وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ أم يكفر والعياذ بالله فتتحول نقمة وقد قال تعالى[2] : ﴿ ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ له معقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال ﴾ .

إن الواحد من عباد الله تعالى لا يملك إلا أن يدعو في خشوع[4] : ﴿ ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرِّيَّتي إنّي تبت إليك وإنّي من المسلمين ﴾ أوزعني بمعنى ألهمني .

لقد منَّ الله تعالى على قبيلة قريش وأهل مكة بالنعم العظمى فقد أطعمهم جل وعلا من جوع وآمنهم من خوف وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته جل وعلا ويبين لهم ما نزَّل الله تعالى عليهم . فما موقف كفار مكة من هذه النعم ؟ لقد بدَّلوا نعمة الله تعالى كفراً وكفروا بالله تعالى وكذَّبوا رسول الله تعالى إليهم والكتاب الذي أنزله الله تعالى عليه وصدُّوا عن سبيله جل وعلا . فكيف حقّت على هؤلاء الكافرين كلمة الله تعالى وجرت سنّته ؟ لقد سلبهم الله تعالى نعمة الرسول الكريم الذي كان بين ظهرانَيْهم وأكرم الله تعالى به الأنصار ، وهزمهم في بدر شر هزيمة ، وفتنهم الله تعالى في كل عام مرة أو مرتين ، ونقص الله تعالى أرضهم من أطرافها بدخول أصحابها في الإسلام ، وإن مصيرهم في هذه الحياة الأولى أن يُغْلبوا كل مرة ، وفي الحياة الأخرى النار وبئس القرار ، إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ويؤمنوا ويعملوا صالحاً .

---

(١) سورة إبراهيم ٧ .
(٢) سورة إبراهيم ٧ .
(٣) سورة الرعد ١١ .
(٤) سورة الأحقاف ١٥ .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ
رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ
كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

كما بدأت الآية الكريمة السابقة بما بدأت به الآية الكريمة قبل السابقة عليها باسم الإشارة : « ذلك » دليلاً على ترابط القول وتلاحم المعاني بدأت هذه الآية الكريمة بما بدأت به الآية الكريمة قبل السابقة عليها بالقول : « كدأب » ولا يخفى ما في التكرار من جمال تكرار الجرس إضافة إلى جلال ترابط المعنى وتلاحمه . بل إن التشابه بين الآيتين الكريمتين في كل الصدر : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ﴾ فالمعنى من جهة قديم ، والمعنى وراء ذلك جديد بسبب اختلاف القول بعد ذلك عنه في الآية الكريمة قبل السابقة ونظرته الجديدة . إنه من ذي قبل يشير إلى الكفر ، وهو هنا يشير إلى التكذيب ، والمعروف أن التكذيب استمراءٌ للكفر واستمرار له . وإن لفظ الجلالة : « الله » الذي يفيد العموم هو الذي يأتي من قبل ، بينما يجيء هنا لفظ « الرب » الذي يفيد الخصوص ، والذي ينبه إلى تربية الله عباده بالنعم ، وتنشئته لهم بالآلاء ، ووجوب القيام بالشكر للمنعم جل وعلا . ورغم التوالي للنعم والتتابع للآلاء أصرَّ المكذبون على كفران النعم استمراراً للكفر بالمنعم جل وعلا . وها هو ذا رب العزة يهلكهم بذنوبهم ، وها هو ذا رب العزة يغرق فرعون وآله ، وها هو ذا رب العزة يمزّق مشركي مكة في بدر كل ممزّق ، وها هو ذا رب العزة يأخذ كل ظالم أخذ عزيز مقتدر .

« الكافرون شرّ الدواب ووجوب وفاء المؤمنين بالعهد وإعداد ما استطاعوا من قوة »

الآيات (٥٥ ــ ٦٠)

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

إن شرَّ الدَّواب : الدال والباء أصلٌ واحد صحيح مُنقاس ، وهو حركة على الأرض أخفُّ من المَشْي . تقول : دَبَّ دبيباً . وكلُّ ما مشى على الأرض فهو دابّة[1] ويُسْتَعْمَل الدَّبّ والدبيب في الحيوان وفي الحشرات أكثر ، ويستعمل في الشَّراب والبِلى ونحو ذلك مما لا تُدْرِك حركته الحاسَّة ، ويستعمل في كل حيوان وإن اخْتَصَّتْ في التعارف بالفَرَس . قال تعالى والله خلق كل دابّةٍ من ماء[2] .

عرفنا أن لفظة الدَّوابّ تطلق على كل ما يدبّ على ظهر الأرض ، وهي بالحيوان والحشرات ألصق . وقد نزّلت الآية الكريمة التاسعة والسبعون بعد المائة من سورة الأعراف الذي كفروا منزلة الأنعام بل هم أضل . قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

إن الآية الكريمة الأولى تقرر أن شرّ ما يدبَّ على الأرض من إنسان وحيوان وحشرات وما إلى ذلك هم الذين كفروا الذين لا يؤمنون بالله تعالى ربًّا وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً . وإنما كانوا شرّ ما يدب على ظهر الأرض لأنهم عطَّلوا نعم الله تعالى عليهم وفي مقدمتها العقل مناط التكليف ، وبالتالي هم ارتكبوا الذنب الذي لا يغفره الله تعالى ، وهو الإشراك معه جل وعلا سواه ، ولم يفردوه جل وعلا بالعبادة ، ولم يحققوا الهدف الذي خلقهم الله تعالى من أجله . قال تعالى[3] : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

وتنص الآية الكريمة التالية على صفة من أهم صفات الكافرين السيئة التي جعلتهم شر الدواب وهي صفة الغدر الدائم والنقض المستمر لكل عهودهم المغلّظة مع المصطفى ﷺ ومواثيقهم المؤكدة مع المؤمنين . وهم بقدر نقضهم العهود والمواثيق مع عباد الله تعالى لا

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس « دبَّ » ٢/٢٦٣ .
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني « دب » ١٦٤ .
(٣) سورة الذاريات ٥٦ .

يتقون الله تعالى ولا يخشونه ولا يخافون عذابه جل وعلا .

ومن هؤلاء الناقضين للعهود الناكثين للمواثيق يهود بني قريظة[1] وكفّار مكة الذين نقضوا صلح الحديبية .

والآيات الكريمات الثلاث التاليات تبين أولاها كيفية قتال القوم ساعة الالتقاء بهم في ميدان المعركة ، وتبين أخراها كيفية معاملة من يخشى المسلمون غدرهم ونقضهم العهد والميثاق ، وتخص الثالثة كفار مكة الذين نجوا في بدر .

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

فإما تثقفنهم في الحرب : فإما تلقينهم في الحرب[2] أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب[3] .

فشرّد بهم من خلفهم : فافعل بهم فعلاً يكون مشرِّداً من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عهد وعقد . والتَّشريد : التَّطريد والتَّبديد والتَّفريق[4] أي نكِّل بهم . قاله ابن عباس والحسن البصري والضَّحَّاك والسّدّي وعطاء الخراساني وابن عيينة . ومعناه : غلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ويصيروا لهم عبرة[5] .

لعلهم يذَّكَّرون : لعلهم يتَّعظون بهم[6] .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٨ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٩ . .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/١٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٠ .
(٦) الجلالين وتفسير الطبري ١٠/١٩ .

فانبذ إليهم على سواء : فاطرح عهدهم[1] حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب فيأخذوا للحرب آلتها وتبرأ من الغدر[2] وحتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حربٌ لصاحبه لا سلم[3] وحتى يعتدل علمك وعلمهم بما عليه بعضكم لبعض من المحاربة[4] .

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا : أي فاتونا فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا[5] .

من البين أن الآية الكريمة الأولى يجيء فيها القول : ﴿ فإمَّا تثقفنَّهم في الحرب ﴾ والمعروف أن الثّقف يتجاوز مجرد الوجود والالتقاء إلى مرتبة الحِذْق في إدراك الشيء وفعله[6] وكأن الآية الكريمة تقول للمؤمنين إنكم حينما تجدون الكافرين مصادفة وتلتقون بهم فجأةً ينبغي عليكم أن تكونوا في أكمل عدة وأتم استعداد ، كي تقاتلوهم على الفور ، وتضربوا منهم الرِّقاب وكلِّ بنان ، وأن تثخنوهم وتشدُّوا وثاقهم ، وأن تملئوا قلوبهم خوفاً ورعباً ، وأن تفعلوا بهم ما تنكِّلون به غيرهم وتشرِّدون به من خلفهم من الكافرين الرَّاغبين في نقض العهد والمواثيق . لعل هؤلاء الأخيرين يذَّكَّرون ويتَّعظون ويعتبرون بالناقضين للعهود الذين عاقبتموهم على نقض العهود ونكث العهود أشدّ العقاب .

والآية الكريمة التالية ترشد المؤمنين إلى كيفية التعامل مع القوم الذين يخشون غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق . إن على المسلمين أن ينبذوا إلى القوم عهدهم ، ويطرحوا ميثاقهم ، وأن يعلموهم بذلك ، وأن يعلنوه على رءوس الأشهاد ، كي يكون الطرفان مستويين في العلم بأنه لا عهد بعد ولا ميثاق ، كيلا يُتَّهم المسلمون بالغدر والخيانة . وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن الله سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين ولا يرضى عنهم ولا يأخذ بأيديهم ولا يسدد خطاهم .

والآية الكريمة الثالثة تتحدث عن كفار مكة الذين نجوا في بدر من القتل والأسر والجراح . إنها تقول لهم : لا تحسبوا بفراركم من المعركة ونجاتكم من القتل والأسر وعودتكم إلى

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٩ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٢٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٢٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٢١ وتفسير الطبري ١٠/٢١ .
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني « ثقف » ٧٩ .

مكة المكرمة سالمين أنكم قد سبقتم الله تعالى وفتّموه . إنكم لا تعجزون الله تعالى بحال من الأحوال . وإنما كتب الله تعالى لكم النجاة في المعركة والسلامة حتى وصلتم إلى بلادكم إمهالاً منه جل وعلا لكم كي تعودوا إليه عز وجل وكي تتوبوا إليه توبةً نصوحاً وإلا كان العذاب أليماً والأخذ شديداً .

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

ومن رباط الخيل : رَبْط الفَرَس شدّه بالمكان للحفظ ومنه رباط الجيش . وسمِّي المكان الذي يُخَصُّ بإقامة حَفَظةٍ فيه رِباطاً . والرِّباط مصدر ربطت ورابطت . والمرابطة كالمحافظة . قال الله تعالى : ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم[1] والرِّباط : ملازمة ثَغْرِ العدو ، كأنهم قد رُبِطوا هناك فثبتوا به ولازموه . ويقال : ارتبطت الفرس للرِّباط . ويقال : إن الرباط من الخيل الخَمْسُ من الدواب فما فوقها[2] .

تُرْهبون به عدو الله وعدوكم : تخيفون بإعدادكم ذلك عدو الله وعدوكم من المشركين[3] وعن ابن عباس : تخزون به عدو الله وعدوكم[4] .

وآخرين من دونهم : قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون . وهذا أشبه الأقوال . ويشهد له قوله تعالى : وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم[5] .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني « ربط » ١٨٥ .
(٢) معجم مقاييس اللغة « ربط » ٤٧٨/٢ .
(٣) تفسير الطبري ٢١/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ٢٢/١٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣٢٢/٢ .

تأمر الآية الكريمة الذين آمنوا بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة ، ويهيِّئوا ما أمكنهم من عدة وعتاد ، ومن رباط الخيل ، حينما كان القتال عليها ، ومن كل وسائل القتال المتغيِّرة بتغيُّر الأيَّام ، المتطوِّرة بتطوُّر الأحوال ، كي يرهبوا بتلك القوَّة وذلك السِّلاح والعتاد عدو الله تعالى الذي لا يؤمن بالله تعالى ربًّا ولا بالإسلام ديناً ، وعدو المؤمنين الذي يتربَّص بهم الدوائر ويقاتلهم ويؤلِّب عليهم ، وكي يرهبوا آخرين من دونهم ومنافقين من سواهم لا يعلمهم المؤمنون ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم . ولمَّا كان إعداد القوة وتهيئة السلاح وتدريب الرجال بحاجة إلى المال ، بسبب أهمية المال في الإنفاق على الرجال والعتاد ، فقد جاء في الآية الكريمة الحثّ على إنفاق المال في سبيل الله تعالى وذلك عن طريق النص على الثواب الجزيل للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ونفي الظلم بحذف حسنة أو بإضافة سيئة .

عن أبي علي الهمداني أنه سمع عقبة بن عامر على المنبر يقول : قال الله : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : قال الله : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوي الرمي ألا إن القوة الرمي ثلاثاً[1] رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجة[2] .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٢١/٢ .

« إن مالوا إلى المسالمة فمل إليها ، والله تعالى حسبك
ومن اتَّبعك من المؤمنين ، وحرِّضهم على القتال »
الآيات (٦١ ــ ٦٦)

وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

وإن جنحوا : أي مالوا[1] .

للسّلم : أي المسالمة والمصالحة والمهادنة[2] والمتاركة[3] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ كما تخاطب وراء ذلك كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية في مركز القيادة وتقول له بأن الخصوم إن جنحوا إلى السلم وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب إما بالدخول في الإسلام وإما بإعطاء الجزية وإما بموادعةٍ ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح[4] فاجنح للمسالمة ومل إلى المصالحة والمهادنة ، وليس لك إلا الظاهر ، وها هو ذا ظاهرهم يدعو إلى المسالمة والمصالحة ، وتوكل على الله تعالى وحده لا شريك له في ميلك إلى السلم والصلح فهو حسبك وكافيك ، وهو متولي أمورك وراعي شئونك . إنه جل وعلا هو السميع ، هكذا في صيغة المبالغة لكل قول ، العليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، بكل نية وفعل ، فمجاز عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

فإن حسبك الله : أي كافيك وحده[5] .

هو الذي أيّدك بنصره : الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه[6] .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٢٤ وتفسير ابن كثير ٢/٣٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/٢٤ .

(٤) تفسير الطبري ١٠/٢٤ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٣ وتفسير الطبري ١٠/٢٥ والجلالين .

(٦) تفسير الطبري ١٠/٢٥ .

وبالمؤمنين : يعني الأنصار[1] .

وألَّف بين قلوبهم : وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرُّق والتَّشتُّت على دينه الحق ، فصيَّرهم به جميعاً بعد أن كانوا أشتاتاً ، وإخواناً بعد أن كانوا أعداء[2] .

أرشَدَ رب العزة الحبيب المصطفى ﷺ إلى كيفية العمل مع الخصوم الذين يخشى نقضهم للعهد والميثاق ويخاف غدرهم وخيانتهم بأن ينبذ إليهم عهدهم ويطرح ميثاقهم على رءوس الأشهاد كي يكون الطرفان مستويين في العلم بانقضاء العهد وانتهاء الميثاق وكي يأخذ كلٌّ من الطرفين حذره من الآخر . والآية الكريمة الأولى هنا ترشد المصطفى ﷺ إلى كيفية العمل حينما يميلون إلى السلم والصلح وهم يبيِّتون الغدر والخديعة . إن العمل هو استمرار التوكل على الله تعالى الذي أمرك أيها الرسول الكريم والنبي العظيم بأن تميل إلى الصلح إن مالوا إليه وأن تتوكل عليه جل وعلا وحده لا شريك له . إنهم إن كانوا راغبين في الصلح حقاً فقد لبَّيت طلبهم امتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمرك بالاستجابة وبالتوكل عليه جل وعلا وحده لا شريك له . وإنهم إن أرادوا بادِّعاء الميل إلى الصلح أن يخدعوك بإظهار الرغبة في الصلح وإبطان الرغبة في الغدر والخديعة بعد الاستعداد استغلالاً لوقت الصلح وإعلان الميل إليه والرغبة فيه فإن حسبك الله أيها الرسول الكريم ، وإن كافيك ربك أيها النبي العظيم الذي لن يضيعك ولن يخذلك فإنه جل وعلا هو الذي أيدك بنصره في بدر وقواك بالظفر على عدو الله تعالى وعدوك في يوم الفرقان ، وأيدك وقواك بالمؤمنين مهاجرين وأنصاراً ، وألَّف بين قلوب المهاجرين والأنصار وقد قال تعالى[3] : ﴿ والذين تبوَّءوا الدَّار والإيمان من قبلهم يحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ كما ألَّف جل وعلا بين قلوب الأنصار ، الأوس والخزرج ، فقد كانت الحروب بينهم قبل الإسلام سجالاً ابتداءً بيوم سُمَيْر وانتهاءً بيوم بُعَاث[4] وكان العداء بينهما مستحكماً للدرجة التي كان معها كلٌّ من الأوس والخزرج يرفضون أن يؤمّهم في الصلاة قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة خزرجي أو أوسيّ ويرضون بمصعب بن عمير رضي الله عنه إماماً وهو الذي أرسله المصطفى ﷺ بعد

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٢٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣٢٣ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/٢٥ .

(٣) سورة الحشر ٩ .

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٦٥٨ و ٦٨٠ . بيروت ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .